الحديث الرابع

الاقتصاد في الموعظة

أخرج البخاريُّ في صحيحه عن عكرمة ، عن ابن عباسٍ ـ رضي الله عنهما ـ قال :

حدِّثِ النَّاسَ كُلَّ جمعةٍ مرَّةً ، فإن أبيت ؛ فمرَّتين ، فإنْ أكثرت ؛ فثلاث مرَّاتٍ ، ولا تُمِلَّ النَّاسَ هذا القرآن ، ولا أُلفينَّك تأتي القوم وهم في حديثٍ من حديثهم ، فتَقصَّ عليهم ، فتقطعُ عليهم حديثهم ، فتملّهم ، ولكن أنصت ، فإذا أمروك ؛ فحدِّثهم وهم يشتهونه . فانظر السَّجع من الدُّعاء فاجتنبه ، فإنِّي عهدتُ رسول الله ﷺ وأصحابه لا يفعلون إلاَّ ذلك الاجتناب[1] .

وأخرج أحمد عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنَّها أوصت بمثل هذه الوصيَّة قاصَّ المدينة[2] .

إنَّها كلماتٌ رائعاتٌ نافعاتٌ ، قالهنَّ ابن عباسٍ ، وهُنَّ خلاصة تجربته في مخاطبة النَّاس ، ودعوتهم إلى الخير ، وعصارة فهمه لأدب الكلام ، كما يقضي بذلك الكتاب الكريم ، والسُّنَّة المطهَّرة ، يوصي بهذه الكلمات مَنْ يتصدَّىٰ لدعوة الخَلْقِ إلى الإسلام .

كلماتٌ تزخَر بالحكمة ، وتزدان بالصَّواب ، وهي مع ذلك كلِّه قد صيغت بأسلوب جميلٍ مُحكمٍ .

---

(١) البخاري ٨/ ٦٢ برقم ٦٣٣٧ والفتح ١١/ ١٣٨ .

(٢) المسند ٦/ ٢١٧ .

إنَّ هذه الكلمات درسٌ للدُّعاة إلى الله جميعاً ، ولا سيَّما للدُّعاة الَّذين يكثرون الكلام عن حسن قصدٍ ، ويسرفون في الوعظ. وهذا الإكثار ، والإسراف نتيجةٌ لغلطٍ في تصوُّر الدَّعوة ، ليست الدَّعوة كلاماً فقط ، كما يظنُّ كثيرٌ من النَّاس ، إنَّ الكلام لونٌ من ألوان الدَّعوة إلى الله نافعٌ ، وضروريٌّ ، ولكنَّه ليس وحده الدَّعوة.

إنَّ الدَّعوة إلى الله سلوكٌ حسن ، وعاطفةٌ صادقة ، ولهفةٌ حارةٌ لملهوف ، وإغاثةٌ جادةٌ لمستغيث ، ومعونةٌ مجديةٌ لمحتاج ، وإجارةٌ قويةٌ لمستجير ، ومواساةٌ رقيقةٌ دافئةٌ لمحزون ، وكتابةٌ عميقةٌ لمؤلَّف ، وتخطيطٌ واعٍ مدركٌ للعمل. . وأمورٌ أخرىٰ كثيرةٌ جدَّاً ، تكون وَفْقَ ما تقتضي حال المدعوِّينَ ، وقد تختلف هذه الأمور من قومٍ إلى قومٍ ، ومن بيئةٍ إلى بيئةٍ ، ومن عصرٍ إلى عصرٍ.

إنَّ مساعدة إنسانٍ في حمل متاعه ، أو إجابته على سؤالٍ أقلقه ، وأعياه الوقوف على جوابه ، أو دعوةً إلى طعام تحمل معنى التَّكريم ، والاهتمام ، إنَّ ذلك ربَّما فاق في تأثيره خطبةً بليغةً ، وكلاماً طويلاً.

إنَّ على الدَّاعية أن يواكب عصره ، ويعلم: أنَّ الأمور المرتجلة ، نفعها قليلٌ ، وربما عادت أحياناً بالضَّرر على صاحبها ؛ لأنَّ الدَّعوات المناوئة تقوم على الدِّراسة ، واستخدام العلوم المختلفة ، والتخطيط. . . إنَّ عليه أن يدرس الوسط الَّذي يعيش فيه ، والبيئة التي يريد أن يعمل فيها ، وستفتح له دراسته هذه مجالاتٍ في الدَّعوة إلى الله ، لم تكن تخطر له على بال ، وستقوده هذه الدِّراسة إلى تخطيطٍ دقيقٍ في كلمته ، وتصرُّفه ، وحركته ، يعود عليه بالخير العميم ، ويحقِّق له من النَّجاح في مهمَّته فوق ما كان يتوقَّع.

ليس من شكٍّ في أنَّ معرفة أثر الكلام على السَّامعين أمرٌ يهمُّ المتحدِّث صاحب الرِّسالة ؛ لأنَّ حديثه غير الموفَّق ربما يؤدِّي إلى عكس ما يريد.

جاء في مسند أحمد ٦/ ٢١٧ :

قالت عائشة لابن السَّائب قاصٍّ أهل المدينة :

ـ ثلاثاً لتبايعنِّي عليهنَّ أو لأُناجِزَنَّك.

ـ فقال: ما هنُّ؟ بل أنا أبايعك يا أمَّ المؤمنين!

ـ قالت: اجتنب السَّجع من الدُّعاء؛ فإنَّ رسول الله ﷺ وأصحابه كانوا يفعلون ذلك... وقصَّ على النَّاس في كلِّ جمعةٍ مرَّةً، فإن أبيت؛ فثنتين، فإن أبيت؛ فثلاثاً، فلا تملَّ النَّاس هذا الكتاب. ولا أُلفينَّكَ تأتي القوم وهم في حديثٍ من حديثهم، فتقطع عليهم حديثهم، ولكن اتركهم، فإذا جرَّؤوك عليه، وأمروك به؛ فحدِّثهم.

إنَّ لكثرة الكلام محاذيرَ عدَّةً، سأذكر أهمَّها فيما يأتي:

* إنَّ كثير الكلام ثقيلُ الظِّلِّ غالباً... لأنَّه يحتكر الحديث، ويحول بين كثيرٍ من الرَّاغبين في الكلام، وبين بغيتهم... ويقطع على المتأمِّل طرق التأمُّل... ويُدْخِل الضِّيق على صدور السَّامعين. والخطورة في هذا الموضوع هنا: أنَّ هذا المتكلِّم يعظ النَّاس بالقرآن، ويدعوهم إلى التزام الإسلام، فقد يستثقل هؤلاء السَّامعون مضمون دعوته، ودينه، فيكون سبباً لهلاكهم، ودخولهم جهنَّم، وهذه إساءةٌ إلى الدِّين، ومثلُه مثلُ الَّذي يسب أبا الرَّجل، فيسبُّ أباه، ويسبُّ أمَّه، فيسبُّ أمَّه، وقد جعله رسولُ الله ﷺ شاتماً لوالديه، كما جاء في الحديث.

* إنَّ كثير الكلام معرَّضٌ إلى الوقوع في الغلط غالباً... لأنَّه سيخوض في أمورٍ ليس عنده فيها كلِّها اطلاعٌ كافٍ، وقد انتبه الأقدمون إلى هذه الحقيقة، فقرَّروا في حكمهم: أنَّ من تكلم كثيراً؛ غلط كثيراً[1].

* وإنَّ كلامه سيكون فجّاً، سطحياً، سخيفاً، مكروراً مهما كان صاحبه من النَّوابغ؛ لأنَّ الكميَّة دائماً تكون على حساب الكيفيَّة. ومن مشاهداتنا في الصُّحف، والإذاعة، والتَّأليف: أن المكثرين يعوزهم العمق، والجدَّة، والأفكار القيِّمة.

* إنَّ كثرة الكلام ـ ولا سيَّما إذا حُمل النَّاس على سماعها حملاً، كما

---

(١) انظر مبحث (الثَّرثرة داءٌ وبيل) في كتابنا «توجيهاتٌ قرآنيَّة في تربية الأمَّة».

يُصنع أحياناً في المدارس ، والمساجد ـ ربما كان لها ردَّة فعلٍ تجعلهم ينحازون إلى الطَّرف المقابل ، تعبيراً عن ضيق صدورهم ، ونكاية بهذا المتحدِّث ، وعناداً.

وكثرة الكلام تجعلهم يملُّون ما يسمعون ، فإذا كان الواعظ يعظهم بالكتاب والسُّنَّة كان الخطر جسيماً ، وهـذا المعنى هـو الَّـذي نبَّه إليه ابن عباسٍ بقوله: (ولا تُمِلَّ النَّاسَ هذا القرآن) أي: ولا تجعلهم يمَلُّون هذا القرآن ، ومن فعل ذلك كان مسيئاً لنفسه ، ولدعوته ، وسامعيه ، والكلام الطَّويل ينسي آخرُه أوَّلَه؛ لأنَّ السَّامع مهما أوتي من قوَّة الضَّبط لا يكون قادراً على المتابعة مدَّةً طويلةً . . وإذا خرج من الجلسة ؛ لم يتذكَّر إلا القليل.

والكلام الكثير المملُّ يسيءُ إلى كرامة الدَّاعية؛ لأنَّه يُعرِّضُ نفسه إلى ألوانٍ من الحرج ، والمهانة ، أيسرها أن ينفضَّ النَّاسُ عنه ، وليس أصعب على نفس الدَّاعية الغيور على كرامته من أن يحدِّث قوماً ، فيتركوه ، ويخرجوا مُعْرِضين. وقد يعمِد بعضهم إلى مقاطعته ، والتَّشويش عليه ، وقد يعمِد بعضهم إلى إسكاته بطريقةٍ من الطُّرق. وأذكر حادثتين شاهدتُهما ، وتركتا في نفسي أثراً كبيراً ، كانت إحداهما في حفلٍ أقيم في مسجدٍ ، حيث ارتقىٰ المنبر طالبٌ من طلبة العلم ، وتكلَّم ، وأطال ، وتململ النَّاس ، وضاقوا به ذرعاً ، فما كان من أبيه إلا أن قام ، وناداه بأعلىٰ صوته آمراً إيَّاه بالتوقُّف ، وترك المنبر.

وكانت الأخرىٰ في حفلةٍ أقيمت في ذكر محاسن الشَّاعر محمد إقبال ، أقامتها الجامعة السُّورية في دمشق ، وأطالت دكتورةٌ ، وكانت من المتكلِّمين إطالةً ضيَّقت صدور الحاضرين ، وتصاعدت الهمسات من هنا ، وهناك ، وكان وزير المعارف حاضراً ، فأمر عريف الحفل أن يطلب منها الاختصار ، فكتب إليها ورقةً ، ولكنَّها لم تستجب ، ولمَّا طال الأمر قام عريف الحفل ، وخطف الأوراق منها ، وانفرجت الأزمة ، وانفجرت القاعة بالضَّحك ، والشَّماتة بهذه المرأة ، وصفَّقوا طويلاً.

إنَّ هذا ينبغي أن يبتعد عنه الدُّعاة إلى الله.

جاء في كتاب «أدب الدُّنيا والدِّين»:

قال الخضر لموسىٰ عليه السَّلام:

يا طالب العلم! إنَّ القائل أقلُّ ملالةً من المُستمع، فلا تُمِلَّ جلساءَك إذا حدَّثتهم. يا موسىٰ! واعلم: أنّ قلبك وعاءٌ، فانظر ما تحشو في وعائك[1].

وقال بعض العلماء:

كلُّ علمٍ كثُر على المستمع، ولم يطاوعه الفهم؛ ازداد القلب به عمىً، وإنَّما ينفع سمع الآذان إذا قوَّى فهم القلوب في الأبدان[1].

إنَّ المرء عندما يتحدَّث والقوم يشتهون حديثه؛ يكون انتفاعُ النَّاس من كلامه كبيراً، ويكون انطلاقه هو في الكلام النَّافع أغزر، وأوفر، وتوفيقه للأسلوب المؤثِّر النَّاجح أكبر. كم هناك من فرق بين مَنْ يُحَدِّث قوماً يشتهون حديثه، وبين مَنْ يُحدِّثهم وهم يتمنَّون سكوته؛ وهم له كارهون.

قال عبد الله بن مرداس: كان عبد الله بن مسعودٍ يخطبنا كلَّ خميس، فيتكلَّم بكلامٍ، فيسكت حين يسكت، ونحن نشتهي أن يزيدنا[2].

وعن أبي وائل؛ قال: كان عبد الله بن مسعودٍ يذكِّر الناس في كلِّ خميسٍ. فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن! لوددتُ أنَّك ذكَّرتنا كلَّ يومٍ. قال: إنَّه ما يمنعني من ذلك إلا أنِّي أكره أن أملَّكم، وإنِّي أتخوَّلكم بالموعظة كما كان رسول الله ﷺ يتخوَّلنا بها مخافة السآمة علينا[3].

وعن شقيق قال: كنَّا جلوساً على باب عبد الله بن مسعودٍ ننتظره يأذن لنا. قال: فجاء يزيد بن معاوية النَّخَعيُّ، فدخل عليه، فقلنا له: أعلمه بمكاننا، فدخل، فأعلمه، فلم يلبث أن خرج إلينا، فقال: إنِّي لأعلم بمكانكم،

---

(١) أدب الدُّنيا والدِّين ص ٧٤.

(٢) كتاب القُصَّاص والمذكِّرين لابن الجوزي ٢١٣.

(٣) صحيح البخاريِّ ١/ ٢١ برقم ٧٠، وصحيح مسلم برقم ٢٨٢١، والتِّرمذيُّ ٤/ ٣٥ برقم ٢٨٥٥ وانظر القُصَّاص والمذكِّرين لابن الجوزيِّ ص ١٨٩.

فأدعكم على عمدٍ ، مخافة أن أملَّكم. إنَّ رسول الله ﷺ كان يتخوَّلنا بالموعظة في الأيام ، مخافة السَّآمة علينا[1].

هذا نهجُ محمَّدٍ ﷺ مع أصحابه ، وهذا هديه في الدَّعوة ، وهو ﷺ على ما نعلم من محبَّة أصحابه له ، ومع ما نعلم من بلاغته وعمق معانيه. . كان ﷺ يخشى أن يُدخل السَّآمة والملل على أصحابه ، فيتخوَّلهم الأيَّام بالموعظة. إنَّه ـ والله! ـ درسٌ لكلِّ من يتصدَّى لدعوة النَّاس.

وقد درج على هذا النَّهج السَّويِّ أصحابُ رسول الله ﷺ سلوكاً ووصيَّةً ، فهذا عبد الله بن مسعودٍ ـ وهو من أعظم علماء الصَّحابة ـ يمتنع من التَّحديث أكثر من مرَّةٍ في الأسبوع ، وكذلك كانت وصاياهم ـ رضي الله عنهم ـ كما رأينا في وصية ابن عباسٍ ، وعائشة رضي الله عنهما.

وسار التَّابعون لهم بإحسانٍ وَفْقَ هذه السُّنَّة الرَّشيدة ، ومن الأمثلة الَّتي تُروى عن التَّابعين ما ذكر عن مُطَرِّفِ بن عبد الله بن الشِّخِّير التَّابعيِّ ، الثِّقة ، الصَّالح ، الزَّاهد ، العالم ، كان من كبار التَّابعين ، ومن الدُّعاة المؤثِّرين الموفَّقين ، وكان مجاب الدَّعوة ، ذا فضلٍ ، وورعٍ ، وأدبٍ ، وله كلماتٌ رائعةٌ.

حدث غيلان بن جرير[2]: أنَّ مُطَرِّف بن عبد الله[3] كان يحدِّثنا ، فيقطع الحديث ؛ ونحن نشتهيه ، فنقول له في ذلك ، فيقول: إنَّه أسرع لرجعتكم إليَّ[4].

وكان عمر بن عبد العزيز يوصي الوعَّاظ بالاقتصاد في الكلام ، والإيجاز ، فقد كان يكتب إلى عمَّاله أن يكون حديث الواعظ في كلِّ ثلاثة أيام مرَّةً[5].

---

(١) المسند ١/ ٤٢٥ ، وانظر كتاب القُصَّاص والمذكِّرين لابن الجوزي ١٨٩ ـ ١٩٠.

(٢) هو الإمام غيلان بن جرير أبو يزيد الأزدي المعولي بصريٌّ ثقةٌ حدث عن أنسٍ ، وغيره ، توفِّي سنة ١٢٩ هـ.

(٣) هو الإمام القدوة الحجَّة مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير أبو عبد الله لقي عليَّ بن أبي طالب وغيره ، توفي سنة ٩٥ هـ.

(٤) كتاب القُصَّاص والمذكِّرين ١٩٠.

(٥) كتاب القُصَّاص والمذكِّرين ١٩١.

إنَّ الناس في الحياة مرتبطون بأعمالٍ ، وعلاقاتٍ مع الآخرين ، فقد يدخل المرء المسجد لأداء فريضة الصَّلاة ، فيأتي الواعظ ، ويمسكه ، وقد يكون مشغولاً ، وقد يكون عنده موعدٌ مهمٌّ لا بُدَّ من حضوره ، وقد يكون مضطراً للسَّفر في وقتٍ محدَّدٍ لو تأخَّر ؛ فاتته الطيَّارة ، أو القطار ، وقد يكون غدا لإحضار دواءٍ ، أو طبيب ، وقد يكون خرج لاستقبال غريبٍ ، أو لأداء واجبٍ ، أو للالتحاق بوظيفةٍ ، فلا يجوز أن نحبس النَّاس عن هذه المقاصد ؛ ليسمعوا كلاماً مرتجلاً ، وربَّما كان فيه لحنٌ ، وغلطٌ ، وأحاديث ضعيفةٌ ، وواهيةٌ ، كما هو واقع حال عدد من الوعاظ اليوم.

إنَّ الإقلال في مرَّات الوعظ ، والإيجاز في الكلام يجعل قبول الكلام سائغاً ، وبذلك يتحقَّق المطلوب. لماذا لا يعمِد الدَّاعية إلى تركيز الكلام الَّذي يريد أن يلقيه على النَّاس.. إنَّ بعض المشهورين من الدُّعاة يكرِّرون أنفسهم ؛ لأنَّهم لا ينمون ، ولا يجدون الوقت اللازم للنُّموِّ... لأنَّهم في كلامٍ دائمٍ. إنَّ بعض هؤلاء يحفظ أمثلةً معيَّنةً يردِّدها في كلِّ مناسبةٍ ، ولولا شهرتهم ؛ لأنكر الناس عليهم هذا التَّكرار ، وإنَّ الحديث المعاد ثقيلٌ على النفس ، وكثرة الكلام تضطر المتحدِّث إلى الإعادة. بل هناك ما هو أخطر من ذلك.

إنَّ من أسباب وضع الحديث الوعظَ ، والقصصَ ، فقد كان بعض القُصَّاص ممَّن لا يخافون الله يتحدَّثون يومياً أكثر من مرَّةٍ ، فيلجئهم ذلك إلى اختراع بعض الأحاديث[1].

وقول ابن عباس (ولا أُلفينَّك تأتي القوم وهم في حديث من حديثهم فتقصَّ عليهم ، فتقطعَ عليهم حديثهم ، فتملِّهم) هذا أدبٌ عالٍ من آداب المعاشرة... والدَّعوة. فإذا كان الناس يتحدَّثون ؛ فاتركهم يتحدَّثون ، ولا تأخذ الحديث منهم ، وتقطع عليهم حديثهم ، ولا تلزمهم بأن يستمعوا إليك. إنَّ هذا التصرُّف يجعلهم يكرهونك ، وربَّما قادهم ذلك إلى كراهية ما تدعو إليه ، ويجعلهم يملُّون كلامك مهما كان حسناً.

---

(١) انظر كتابنا: الحديث النَّبوي ص ٢٥٦.

إنَّ عليك أيُّها الدَّاعية أن تنصت لهم ، وهم يتحدَّثون ، ففي ذلك احترامٌ لمن يتكلَّم ، وإتاحة الفرصة له ؛ ليتمَّ حديثه ، فإذا رجوك أن تتحدَّث ، فحدِّثهم عندئذٍ ، وهم يشتهونه .

ترك التكلُّف :

وأخيراً فإنَّ وصيَّة ابن عباسٍ ـ رضي الله عنه ـ تدعو إلى ترك السَّجع ؛ لأنَّه أمارة التكلُّف ، والتكلُّف يفقد الجاذبيَّة ، ويضعف التَّأثير ، ومن هنا نستطيع أن نقرِّر أنَّ كلَّ تكلُّفٍ في الخطيب ممقوتٌ مذمومٌ ، فلا الإشارة ، ولا نبرة الصَّوت ، ولا الحركات ينبغي أن تكون متكلَّفة . . . إنَّ الإنسان إذا تكلَّم كلاماً مركزاً على طبيعته ؛ كان هذا أدعىٰ للتـأثُّر . والتَّـأثير ورسول الله برىء من المتكلِّفين .

أمَّا السَّجع إذا جاء دون تكلُّفٍ فهو جميلٌ مقبولٌ ، وقد أنكر الرَّسول ﷺ على من أتى بالسَّجع المتكلَّف ، وقال له : «أسجعٌ كسجع الأعراب ، إنَّما هو أخو الكُهَّان»[1] ولكنَّه ﷺ أتىٰ أحياناً بكلام مسجوع كأنَّه سلاسل الذَّهب ، لأنَّه فاض عن الفطرة ، وبرئ من التكلُّف والتَّصنُّع ، من نحو قوله ﷺ : «أيُّها النَّاس! أفشوا السَّلام ، وأطعموا الطَّعام ، وصِلُوا الأرحام ، وصلُّوا باللَّيل والنَّاسُ نيام ؛ تدخلوا الجنَّة بسلام»[2] .

ونحو قوله : «تعوَّذوا بالله مِنْ جَهْدِ البلاء ، وَدَرْكِ الشَّقَاء ، وَسُوْءِ القَضَاء ، وشماتة الأعداء»[3] .

وقوله : «اللَّهُمَّ! آت نفسي تقواها ، وزكِّها أنت خير مَنْ زكَّاها ، أنت

---

(١) صحيح البخاريّ ٥٧٥٨ ، وصحيح مسلم ١٦٨١ ، والموطَّأ ٢/ ٨٥٥ ، والدَّارميُّ ٢/ ١٩٦ ، وسنن الدَّارقطنيّ ٣/ ١٩٨ ، وأبو داود ٤٥٦٨ ، ومسند أحمد ١/ ٣٦٤ و٤/ ٧٩ ، والنَّسائيُّ ٨/ ٤٦ ـ ٥٢ .

(٢) التِّرمذيُّ ٣/ ٣١٣ ، وأحمد ٥/ ٤٥١ ، والدَّارميُّ ١/ ٣٤٠ ، وابن ماجه برقم ١٣٣٥ ، والحاكم ٣/ ١٣ عن عبد الله بن سلام .

(٣) البخاريُّ ٨/ ٦٣ برقم ٦٦١٦ ، ومسلمٌ ٢٧٠٧ ، والنَّسائيُّ ٣/ ٢٣٧ .

وليُّها ، ومولاها. اللَّهُمَّ! إنِّي أعوذ بك من علمٍ لا ينفع ، ومن قلبٍ لا يخشع ، ومن نفسٍ لا تشبع ، ومن دعوةٍ لا يُستجاب لها»[1].

وقوله: «إنَّ الله تعالى حرَّم عليكم عقوق الأمَّهات ، ومنعاً وهات ، ووأد البنات ، وكره لكم قيل وقال ، وكثرة السُّؤال ، وإضاعة المال»[2].

وبعد فإنَّ أثر ابن عباسٍ ـ رضي الله عنه ـ درسٌ من دروس الدَّعوة ، ما أحرانا أن نتدبَّره ، ونعمل به!

* * *

(١) مسلمٌ ٢٧٢٢ ، وأحمد ٤/ ٣٧١ ، والنَّسائيُّ ٨/ ٢٢٨ و٢٥٨.

(٢) البخاريُّ ٩/ ٧٨ برقم ٧٢٩٢ ، ومسلمٌ ٥/ ١٣١.